

فِي سَبِيلِ الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ

لِلْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ حَسَنَ الزِّيَّاتِ

- ١ -

مبرا ، ولا يدركون في غيرها لذة : تلك هي الرغبة في التعقيب على أخبار القانون السعيد الذي سيملا القرى غنى كما ملأها الإقطاع فقرا ، وفي التعليق على خطب الزعيم الجديد الذي سيملا البلاد عدلا كما ملأها فاروق جورا . ولكنهم كانوا يحكم أميهم يتفاوتون في فهم ما يذيعه الراديو باللغة الفصحى ؛ فالقلة القليلة وهم المتعلمون وأنصافهم يفهمون كله ، والكثرة السكّرة وهم الأميون وأشباههم يفهمون بعضه . لذلك كانوا إذا ما أسكتوا المذيع يمدون أعناقهم إلى المصطبة الطويلة التي يجلس عليها كبار القوم ، وينشرون آذانهم إلى ما يقول الشيخ محمود بلغة العامة ، ترجمة عما قال المذيع بلغة الخاصة . حتى إذا فرغ الشيخ من التلخيص ، وأعانه الشيوخ الآخرون على الشرح ، انثالت الأسئلة على المصطبة ، وانتهت الأجوبة على الساحة ، وأخذت الناس حال من الحماسة تكاد تخرجهم من جلودهم الفليضة ، وتنبههم على عقولهم الرزينة . هذا يراهوه

لم يكد المصلون يفرغون من صلاة العشاء في مسجد القرية حتى ابتدروا الباب يريدون الخروج . لم ينتظروا ختام الصلاة المفروضة مع الإمام ، ولا أداء الصلاة السنوية بعد الختام ؛ وإنما خرجوا وعلى وجوههم اهتمام ، وفي حركاتهم نشاط . لقد كان موعد النشرة الإخبارية الثالثة التي تذاع في منتصف الساعة التاسعة قد قرب . والفلاحون منذ سنت حكومة الثورة قانون تحديد الملكية ، حراس على أن يجتمعوا كل ليلة في ساحة المدة يستمعون إلى الراديو وهو يذيع أخبار هذا القانون ، من تفصيل مجمل ، أو تفسير غامض ، أو تعديل نص ، أو تنفيذ قرار . فإذا فرغ مذيع المحطة من خبره ، أو مندوب الحكومة من حديثه ، لم يجدوا في أنفسهم ما كانوا يجدون قبل اليوم من الرغبة الشديدة في الاستماع إلى قصائد أم كلثوم ، أو إلى أغاني عبد الوهاب ؛ وإنما وجدوا مكانها رغبة أخرى لا يملكون عن قضائها

أبناء (قولة) فيما اغتصبوا بيضة قرون .
فلما انتقل المذبح إلى أحداث الحرب في كوريا ،
وأبناء الثورة في كينيا ، أقتلوا الراديو وأقبلوا
بأبصارهم وأسماعهم على أهل المصطبة . ولم تنكد
العيون تتلاقى حتى سرى منها إلى القلوب
سيال من الثمر المتجدد المتحد حرك الألسنة
بالهتاف ، وشغل الأيدي بالتصفيق ، وأخرج
الشباب عن طورهم فأخذوا يتبادلون اللكمات
والركلات على عاداتهم حين يستخفهم الفرح .
أما الكهول فظلوا في مقاعد هادئين هائنين
يتمتعون بما أثمرهم هذا النبأ العظيم من برد
السرور وحلاوة الغبطة ؛ لأن انقضاء أكثر
العمر في عبودية المالك وذلة الفقر طبع
نفوسهم على التسليم بالواقع والرضا بالمكروه ؛
فالحلم أشبه بحال السجناء حين يتلقون أمر
الإفراج ، أو الأرقاء حين يسمعون صيغة
العتق ، لا يربطون ولا يعبطون ؛ وإنما يقابلون
الأمر ببشاشة المطمئن وانقسامه الشاكر .
ذهب أكثر الشباب إلى الحقول القريبة
بنفسون فيها بالمرح الصاحب عن الفرح
المكثوم ، ويتلذذون برأى الأرض وهي ملك
كما كانوا يتألمون برآها وهي سخرة . وبقي
أقلهم أمام المصطبة مع الكهول ، يتذكرون
ما كانوا عليه ، ويتفكرون فيما ساروا إليه .
وكان الحاج إبراهيم خولي التفتيش القديم
يتصدر المصطبة في غياب العمدة ؛ لأنه أكبر

الشموخ الحادث فيملن الاحتقار للمالك
الأرض . وذلك يملكه الحق القديم فيسر
الانتقام من ناظر الزراعة . وهؤلاء
رجون أن يقع ما يملكون في الأحواض
الخضبة . وأولئك يخشون أن يقل
ما يأخذون عن الفدادين الخسة . ثم ينصرفون
جميعا إلى دورهم مثنى أو ثلاث أورباع ،
وهم يملكون ما تبادلوا من الأحاديث ،
ويعملون ما تخيلوا من التي ، ويرسلون أعينهم
في ضياء القمر الزاهر إلى الحقول الكاسية
بسيقان الرز وأعواد الذرة ، فتملكهم هزة
الطرب فيصيحون وهم يرقصون ويصفقون :
أحقا ستصبح هذه الأراضي لنا ؟

— ٢ —

وفي تلك الليلة التي رأيناها فيها
ينصرفون سراعا من بيت الله إلى بيت العمدة ،
كان الراديو يذيع أن اللجنة العليا لتنفيذ
قانون الإصلاح الزراعي قد استولت على
ما فوق المائتي فدان من أراضي الملك الخليل
الخلوع وآل بيته ومن استار سيرتهم في
الترف والسرف والطغيان والجور . وكان من
بين هؤلاء مالك الأرض التي خلق الله
أجسادهم وأرواحهم منها ، وأعاد أجسادهم
وآباءهم فيها ، وجعلها لهم ولأبنائهم مستودع
الذكريات والثرات ، ومستقر الحياة والرزق ،
ومستراح الموى والأمل ، قبل أن يغتصبها

أو أكثر . فالتفت إليه الحاج يقول وعلى وجهه مسحة الأسى ، وفي صوته رنة الأسف :
ليت جديك يا محمد كان حيا اليوم فيسمع بأذنيه
الراديو وهو يتقل إلينا هذه البشري ، ويرى
بميينه الحكومة وهي توزع علينا هذه
الأرض ! إذن مات ميتة السعيد الذي
صبر فقال ، وسعي فأدرك ، واستغنى فشكر !
فقال له الشيخ محمود : ولماذا تخلص
المرحوم المهدي بهذا التمتي وأهل البلد كانوا
جميعا في مثل حاله ؟

فقال الحاج للشيخ وقد وقف منزله
وتردّن في لهجته وأقبل عليه بوجهه : لأن
المهدي يا أستاذ مات شهيدا في سبيل هذه
الأرض الطيبة . فقال الذين لم يعاصروا
المهدي ويريدون أن يعلموا أمره ، والذين
عاصروه ويحبون أن يستعيدوا ذكره :
قص علينا يا حاج ماذا كان من حديث
البهلول واستشهاده في سبيل هذه الأرض ؟
فقال الحولي القديم وهو ينزع الصوف
الندوف من بئناه ، ويضع الغزل كله في
يسراه :

كانت هذه الأراضي لنا منذ أنشأنا الله
منها ، وجعل حظنا من الرزق فيها ، حتى
اغتنبها محمد علي فيما اغتصب ، ثم ردها إلينا
سميد صديق الفلاح فيما رد . فلما تولى الخديو
إسماعيل وفسق في البلاد فسوقه الفاجر ،

القوم سنا ، وأكثرهم بالزراعة علماء ، وأطولهم
لموظني الدائرة صحة . وكان قد هدف إلى
التمانيين ، ولكنه لا يزال سليم البدن صحيح
العقل ذكي الفهم طلي الحديث مهيب الطلعة ؛
تحسب وجهه الأسمر ، بين كلبوشه الأدكن
العالي ولحيته الشبيهة بالرسلة ، وجه درويش
من دراويش الفرس بدت عليه سمات الصلاح
وغايل السكينة . وكان منذ علاه الشيب
وخفت عنه أعباء العمل قد قسم يومه بين
المسجد والمجلس ، فلسانه لا يفتر عن الذكر
أو الحديث ، ويده لا تفارق المسبحة أو
الغزل . وكان أحب الأحاديث إلى نفسه
ما اتصل بالقرية ومن عاش فيها من الأخيار
والصالحين ، أو بالأرض ومن تعاقب عليها من
الملوك والموظفين . غفاظلته سجل واع لما وقع
في البلدة من أحداث وما طرأ عليها من تغير
في خلال قرن من الزمان ، إن لم يكن فيه
شاهد عيان فقد كان راوي خبر . لذلك تراه
إذا تشقق السمر وتشاجن الحديث يعقب
على كل نادرة بنادرة ، ويملق على كل حكاية
بحكاية

- ٣ -

كان الحاج إبراهيم مخوض مع الخائفين في
حديث التملك والتوزيع حين سمع محمدا حفيد
المهدي البهلول يظهر النبطة ويحمد الله على
أن سيكون له في نرى قريته الحبيبة فدنان

ويعمل الفلاحون فيها (تخلى) بالأجر .
وكانت أجرة العامل سبعة مليات في اليوم ،
وفدانا من الأرض يستغله أهل في السنة .
ثم نقلت ملكية القرية وأهلها من آل
شريف إلى أجناس شتى من الملاك ، فيهم التركي
واليوناني والصري ، حتى انتهى بعضها إلى
وحيدسري ، وبعضها إلى البدرأوى .

فأتم زون أننا فقدنا السلطان على أرضنا
وأمرنا قرابة قرن من الزمان تسبنا فيه طعم
الملكية ولذة الحرية وعزة الاستقلال .
فأصبحنا كما رأينا المالكين يبيعوننا بيع
البيهم ، يشتروننا اشتراء العبد ، ويستغلوننا
استغلال الآلة ؛ وكما سمعنا أن فلاحين في
المرآكز الأخرى لهم أرض يملكونها ،
وزرة يدبرونها ، وغلة يخرجونها في دورهم ،
ويتصرفون فيها بأنفسهم ؛ أقول كما رأينا
ذلك وسمعنا هذا استقمنا القلة ، وأحسننا
الحرمان ، وأدركنا أننا بعداء عن الشعب
ونحن منه ، وغرباء عن الوطن ونحن فيه .
وكان المهدي عليه رحمة الله أسدنا ألما من
هذه الحال ، وأكثرنا هاجسا لهذا الأمر ؛ لأنه
كان عبدا من عباد الأرض المخلصين ، يكاد لا
يرفع يديه منها ، ولا يعمل الجولان فيها ، ولا يسأم
الحديث عنها . يعرف أحواضها قطعة قطعة ،
ويميز فتامها سبها سبها ، ولا يخفى عليه من
قريبها ولا بعيدها شيء في غيبط ولا ساحل .

وأسرف في أموال الدولة إسرافه الفاحش ،
ركبه الدين الفادح ، وأعجزه الاقتراض
المسعف ، وأعوزه المورد الغياض ، كان
يفرض الضرائب الباهظة على الأراضي
خصبها وجديها ، ويكلف عماله في الأقاليم
أن يجبوها مرارا في السنة الواحدة . وكانوا
إذا لم تف غلات الأرض بتطالب الخديو
المرهقة ساموا أصحابها سوء العذاب ، فجلدوا
بالدوط ، وحبسوا في الدوار ، وهجموا على
الحظيرة والدار ، ولا يعصم ملاك الأرض
من كل أولئك إلا الفرار منها أو النزول
عنها . وأجدادهم رحمهم الله قد قضوا أن
يعزلوا عن أراضيهم للحكومة على أن
يخرجوا من ديارهم ، وهي كما تعلمون ملاعب
الصبا ، ومسارح الشبية ، وبحالي الأجابة
ومدافن الأهل . وكان يوم استيلاء الحكام
عليها يوم فرح في القرية دوت فيه الطبول ،
وصدحت المزامير ، وجلجلت الزغاريد ،
وأصبح الناس بعدة آمنين لا تفرغهم حياة
ولا روعهم جنود . وجعل إسماعيل هذه
القرية وست قرى أخرى بمركز طلخا
قطيعة لشريف باننا ورثها عنه ابنه علي
شريف . فلما توفي توارث أقسمها أولاده بينهم
فكانت قريتنا من نصيب ابنه عز الدين .
وكانت الأرض في عهد شريف وذريته تزرع
(وسية) بدير الأرنؤود شؤونها بالكرباج ،

فبيعه ، ولم يفضل من أجرته شئ قيد خره .
 إن القطن وأكثر محصول الحقل لمالك أرضه ؛
 وأجرته والقروش التي تمر على يده من أثمان
 البيض أو السمن لنفقة بيته ، والدين الذي عليه
 لتاجر القماش من جلابيب العيد يوفيه من ثمن
 كيلات من القمح يقطعها من قوت أولاده .
 إذن لم يبق له من وسيلة لشراء الأرض إلا
 معجزة من الله تدركه ، أو كثر من المال
 بعبثه .

وكان المهدي ينتظر هذه المعجزة في ليلة
 القدر من شهر رمضان ، ومن بقلة العشر
 في شهر المحرم ؛ ولكنه وأأسفاه بعد طول
 الانتظار ودوام الترقب لم تنفتح له (الطاقة)
 في السماء ، ولم تفكر فيه (البغلة) في
 الأرض !

وفي عصر يوم من أيام الربيع ، والربيع
 فصل الآمال والوعود ، عاد البهلول من
 النصورة يطفح وجهه بشرا وبقبض صدره
 بهجة . ولم يكذبزل عن حماره حتى دعا
 إليه عنبرته وجيرته ، فلما اجتمعوا لديه قال
 لهم بصوت البشير إذا حمل الخير ، وبلهجة
 الرائد إذا حمد النجمة : إني سمعت اليوم في
 النصورة أفندي يقولون إن الحكومة قررت

وكننا إذا فك المالك الأرض ليعبدتوزيمها
 على المستأجرين تركناه أمر القسمة ، فيوازن
 الخريش بالموض ، ويقارن القطعة بالقطعة ،
 ويمادل الفدان بالفدان ، ويقضى في
 ذلك الشهر أو الشهرين ، ينتقل من مصطبة
 إلى مصطبة ، ويتقلب من جرن إلى جرن ،
 لا يحف له ريق ، ولا يخفت له صوت ، حتى
 يستولى كل مستأجر على أرضه .

كانت أمنية المهدي على الله أن يملكه قطعة
 من ثرى النيل بقصر عليها جهده وخبرته ،
 ويقوت منها ما يشته وأسرته ، ويطلق بها
 شوقه الملح إلى أن يكون إنسانا له كرامة ،
 ومالك له نفوذ ، وزارعا له رأى .

ولم يمنع المهدي بوساوس الأظاع وأحاديث
 المنى ، وإنما كان يتغنى الوسائل إلى تصديق
 أحلامه وتحقيق آمانيه . كان يسأل كل طارىء
 على البليدة عن ثمن الأراضي في جهته ، وعن
 مقدار المعجل والمؤجل من هذا الثمن ،
 فكانت الأجوبة كلها تتفق على أن ما عنده
 من المال لا يبلغه بعض ما في نفسه . وماذا
 كان عنده ؟ إسورة من الذهب لامرأته ثمنها
 عشرة جنيهات ، وعجلة من بنات جاموسه ثمنها
 عشرة أخرى . أما النقد فن أن يأتيه
 وكيف يستقر عنده ؟ لم يدخل بيته قطن

- ٤ -

وعاد الحاج يقول :

بات أهل القرية تلك الليلة ولا حديث لهم إلا خبر الهدى ووادي الريان . وكان كل رجل في كل منزل يدير الرأي في هذا الأمر فيما بينه وبين أهله : كيف يتركون بيته عرفوها ومعيشة ألقوها إلى بلد بعيد ليس لهم فيه قريب ولا عندهم به علم ؟ وكيف ينصرفون عن حياة معلومة مستقرة فرارا من عسر قد يهون ، إلى حياة مجهولة قلقه طمعا في يسر قد لا يكون ؟

ومن الذي قدر الأرزاق وقسم الحظوظ ؟ أليس هو الله جل شأنه ؟ ورب ههنا رب هناك . وإذا كان الرزاق الكريم قد شاء أن يبدلنا عنى من فاقة ، وملكا من إجارة ، فإنه قادر أن يهيئ الأسباب إلى ذلك من غير حاجة إلى احتيال ، أو ضرورة إلى هجرة . ومن المجيب أن القوم كانوا في هذه الاعتراضات لسانا واحدا كأنما لقنهم إياها ملقن واحد !

والواقع أن في صدر كل مصري شيطاناً يلقي في أمنيته كلما غنى ألا يفترق عن أسرته ، وألا يعتمد على قريته ، وألا يغترب عن وطنه . فالفلاح يرضى في بلدته المعيشة الضئيلة ولا يلتبس العيش الرعيد في إقليم مجاور . والتاجر يقتنع في مدينته بالربح اليسير ولا يطمح في مدينته

أن تنبج الفلاحين (وادي الريان) ^(١) بثمن مقسط على آجال بعيدة ؛ ولهم عليها أن تدبر الماء ، وتبنى الدور ، وتعطى البذور ، وتقرض المال ، وتهب الماشية .

فساح القوم أجمعون بلسان واحد : وأين وادي الريان هذا يا بهلول ؟ فقال : سأنتهم هذا السؤال فأجابوا إنه في جهة الفيوم .

وهنا سكك الحاج إبراهيم ليقول لصاحب المصطبة في شئ من الإنكار : أين الشاي يا شيخ عبد العزيز ؟

فقال شيخ البلد وعويسعي إلى داره ليهيئ الشراب المطلوب : إي والله يا حاج ! إنك لتستحق أكثر من الشاي على هذا الحديث ومررت برهة تبادل فيها الجلوس السكار وعقبوا على بعض نواحي الحديث ، حتى جاء الخفير يحمل النقيع الأسود في قدر كبيرة ، فارتشف القوم أقداحه في التذاذ وسهم ؛ ثم عادوا يرهفون المسامع لقااص الوقور ويقولون له : هيه ، هيه ، يا حاج !

(١) كان مصدر هذه الشائعة الكاذبة ماسرته الصحف يومئذ عن التقرير الذي قدمته لجنة المهندسين الدوليين سنة ١٨٩٤ إلى الحكومة المصرية ، عن استعداد وادي الريان في تخزين ماء النيل زمن الفيضان بترعة تمتد من النهر إلى الوادي ، حتى إذا غامر النيل وأدرك فرعيه الجفاف أملقوا فيه ذلك الماء الخزون فيساعد على أن يروى مليون فدان من الأرض بحدود

بطل المهالين إلا في السواد والقروسية .
أما في صفات الرجولة الأخرى فقد كان
يشابهه أو يقاربه . كان أسمر اللون في ملاحظة
وجهه ؛ وكان شجاع القلب في سماحة خلقه ؛
وكان حشن المراس في دماثة طبعه ؛ وكان على
الجملة أنسبه بفارسان قصة عنبرة الذين تسمعون
بهم ، يجمع بين قسوة الجوارح ورقة المشاعر .
فهو من جهة يشارك عند الضرورة في السطو
بالليل ، ويبالغ يوم الحصومة في الحقد على العدو ،
ويجيد الضرب بالنبوت والخبط بالفأس ؛
وهو من جهة أخرى يعشق الطرب ، ويهوى
الغناء ، ويحسن التفرغ على الطلعة والزمر بالأرغول
والصنوبر بالناي . ومن أجل ذلك كان موضع
الإعجاب من الرجال في المركز ، ومهوى أفئدة
النساء في القرية

وأمس الزهو الذي كان يملأه من
احترام الفتيان له ، وافتتان الحسان به ، كان
بعد طبيعته الطموح الحافز الثاني الذي كان
يدفعه إلى العمل ليقني ، وبغريبه بالغنى ليملك ،
ويطمعه في الملك ليكون أعلى مكانة في أعين
الناس ، وأجل كرامة في رأى نفسه .

واند سبحت له الفرصة في الهجرة إلى
وادي الريان لمبلغ غايته ، ونيل مراده ، فكيف
يدعها تفلت ؟ وهل يليق بأهل الفتوة أن
يستكبروا لمخالف تحقها الأوهام ،
ووساوس تبعثها الظنون ؟ إن أرض الله

إلى الثراء الضخم . والموظف يحزنه أن
ينقل إلى عمل بعيد عن قريته إذا كان في الريف ،
أو عن مسكنه إذا كان في الحضر . والسالك
يشق عليه أن ينتقل من بيت مهتم
في قدر طالت سكناه فيه ، إلى بيت
جديد في حي نظيف استجدت صلته به .
فإذا تساربت أهواء القوم على رفض التزوج
إلى صحراء القيوم كان ذلك استجابة لهذا
الشیطان الذي سدنا عن حواضر السودان
وهي حبيبة ، وصرفنا عن بوادي النيل
وهي قريبة !

كانت هذه الوساس تنتقل من فم
إلى فم ، ومن دار إلى دار ، حتى تصل إلى
أذن المهدي في منزله بطرف القرية ، فكان
يفندها مستمعينا بما سمع من آيات الله ،
وبما حفظ من أمثال الماضين ، وبما روى
من أشعار المهالين . ولكن القوم لم يلقوا
أسماعهم إليه وفضلوا أن يترشوا حتى يذهب
غيرهم إلى هناك ، فيروضوا الأمور ، ويدللوها
الصعاب ، ويخمنوا مكاره البدء .

ولم يرد المهدي أن يُسمع غير سميع ولا
أن يقنع غير مستعد ، فأثر السكوت وصمم
في نفسه على أن يكون هو (أبو زيد المهاللي)
بطل (الريادة)

والحق أن المهدي كان لا يختلف عن

وبات المهدي ليلة الأخيرة في القرية
بحصد، ويعنى، ويغازل، و(ليلاه) من ورائه
نلم الحصيد وتكومه أكواما صغيرة؛ ثم
نلمس عمدا كعبه الخشن بيدها الناعمة من حين
إلى حين، تريد أن تنبهه إلى وجودها من
خلفه. ولكن المهدي كان مصروف الفكر
عن حوله. كان يعنى لسامع بعيد، ويتفكر
بجيب مجهول، ويتفكر في دنيا جديدة،
وينظر من آفة إلى أخرى في نجوم الشرق
يبحث بينها عن نجمة الصباح.

وأخيرا هتكت يد الفجر أستاره
الوردية، ونبش النور، وهلت الديكة،
ولعل صوت (أبو عامر) على سطح المسجد
الصغير يقول الله أكبر! الله أكبر!
فترك المهدي منجمله ورداءه إلى ليلي وذهب
ليتوضأ ويؤدي ركعتي الصبح.

وبعد قليل كان على حمارة في الطريق
إلى طلخا، تحته خرجه، ووراءه أخوه.
فلما بلغ المحطة كان قطار الساعة السادسة
على وشك القدوم، فاشتري تذكرة
إلى الفيوم، ثم اتخذ مقعده بين الركاب.
ولم يكده يستقر فيه حتى استغرق في نوم
عميق ما كان يوظفه منه إلا صوت مأمور
القطار يطلب منه التذكرة من محطة إلى
محطة. وفي طنطا نهوه أن ينتقل إلى قطار
القاهرة فاستقل. وكان قد أحس الجوع

واسمعة فلم يرضى بالضيق؟ وإن رزق الله
كثير فلم ينع بالقلة؟ وإن البؤس الذي يعيش
هو وقومه فيه قد بلغ الحد الذي لا سوء بعده،
فكل تحول عنه لا بد أن يكون إلى أحسن.
وماذا يضره إذا اتجمع هذا المكان المجهول،
فإن أصابه الخير اطمأن به، وإن أخطأه
التوفيق انقلب إلى أهله؟

— ٥ —

كنا في أواخر شهر مايو والفلاحون
قد أوسكوا أن يفرغوا من حصاد القمح، فلم
يبق في حقوله الجراد إلا جماعات مبعثرة هنا
وهناك قد أحرها سمعة الأرض أوضيق ذات
اليدي. وكان المهدي قد حصد أول الناس؛
ولكنه كان مدينا بزمال في الحصد ليمض
جيرانه، وأراد أن يوفيههم هذا الدين قبل
أن تحول الأحداث دون الوفاء به، فخرج مع
الحصادين في المربع الأول من الليل، في يده
منجمله، وعلى كتفه رداؤه. وكان قبل أن
يخرج من داره قد لبس أحسن ثيابه، وقبل
يدأمة، وعانق إخوته، وودع زوجته وابنته.
ثم أمر أخاه الأصغر أن ينتظره بالحمار والخرج
في مدخل سكة السوق بعد صلاة الفجر.

لقد كان مجلس العائلة قرر أن يرحل
المهدي وحده إلى وادي الريان، فيمكث
الأرض، ويختار البيت، ويسلم الجاموسة؛
ثم يرسل إليهم فيلجئون به

يعتسف الأزقة والشوارع لا يعرف مكانا يأوى إليه ، ولا يقصد إنسانا يسأل عنه، حتى دفع إلى بحر يوسف، وهو النهر الذي يخترق المدينة، وأخذ سبيله في الشارع الواقع على شاطئه الأيمن حتى بلغ ساحة فسيحة تظللها الأشجار، ويسكن فيها التجار، ويتطرح في جنباتها العمال والباعة يسترفهون من الإعياء، ويستروحون طراوة المساء، ويناقش بعضهم بعضا أحاديث الناس وأخبار المدينة .

التقى المسافر الغريب خروجه بجانب سور التربة الآخذة من البحر في شرف الساحة ، وأطلع قبل أن يقعد فرأى ساقية عظيمة تدور فترفع الماء من غير بكرة ولا مكينة . فعجب كل العجب ، وحاول أن يعرف سرها فلم يستطع ؛ فاستشر بذلك ، وأيقن أن سواقى وادى الريان كلها من هذا الطراز ؛ وتمنى أن تكون النواجر والمحارث كذلك ؛ فإن في هذا الطراز اقتصادا في جهد البهيمة بكثير الشحم ويدر اللين . ثم وجد في نفسه الحاجة إلى الطعام فأخرج من الخرج فطيرا وجبنا وأكل حتى شبع . ثم أشعل سيكارة وأخذ يفكر في الفد المجهول ويقول لنفسه :

ليت شعري إذا أسفرت هذه الريادة عن صدق ذلك الخير ، أتلتحق بي أمرتي وحدها ، أم تهاجر معها قيتي كلها ؟

فأدخل يده في الخرج وأخرجها بقرصة من الفطير وقطعة من الجبن فأفطر . ثم تحلل به النعب والسهر فوضع رأسه على رأس المستد ونام .

ولما وقف القطار في محطة القاهرة نزل جميع المسافرين ولم يبق في العربى غيره . فسأل أحد الحمالين : أهذه هي الفيوم ؟ فأجابه : هذه هي القاهرة . فإذا كنت تقصد الفيوم فاسأل عن رصيف الوجه القبلى وامكث هناك حتى يقف عليه قطار الصعيد فاركب فيه .

حمل المهدى خروجه ونزل من العربى ، ومضى يسأل الناس عن رصيف الصعيد ، فبعضهم يمشى ولا يجيب ، وبعضهم يشير ولا يتكلم ، حتى وجد رجلا يحمل زكينة وكريكا، فسأله فقال له : تعال معي . فمشى معه المهدى وانما بين عينيه غرضه ، فلا يفكر ذات اليمين ولا ذات الشمال ، ولا يذكر أنه الآن يتنفس هواء القاهرة التي يسمع أن فيها آل البيت وحديقة الحيوان وأهرام الفراعنة ، حتى دخل هو ورفيقه في رحمة المسافرين الصاعدين ، فخط كل منهما حمله وقعد بجانبه حتى جاء القطار .

— ٦ —

دخل المهدى مدينة الفيوم في الليل وليس له بها معرفة، ولاله فيها صديق ؛ فمشى

فتوضاً ثم عاد فصلى وأفطر . وانتظر حتى هبت القيسوم من الرقاد ، ودبت في مسالكها الحياة ، ثم دنا من رجل وقور توسم في وجهه الخير وسأله :

كيف الوصول إلى وادي الريان ياسيدي ؟ فأجاب الرجل سهوتا وهو يفكر :

وما وادي الريان هذا ؟ ليس في إقليم القيسوم كله مدينة ولا قرية بهذا الاسم . لعنك تقصد بركة فارون ؟

فقال له المهدي مستفهما : وما بركة فارون هذه ؟ لم يرد في الخبر الذي سمعته في المنصورة . مكان بهذا الاسم . أريد وادي الريان الذي توزع الحكومة أرضه على الفلاحين ، وقد قالوا إنه في مديرية القيسوم . فقال له الرجل آسفاً : سل غيري يا أخي فربما كان يعلم .

ولم يسترب البهلول في شيء إلا في علم الرجل . فتركه ومضى منحسداً مع بحر يوسف يسأل الهابط والصاعد عن وادي الريان فلم يجد علمه عند أحد ، حتى بلغ قرية (الفدعين) جلس ليستريح ويتعدي . وكان يختار لسؤاله التكرار ذوى العمام واللبدو الطواق من أهل طبقته لأنه عليهم أجراً وبهم آس . فلما لم يجد عندهم الجواب التفتع بداله أن يستفهم أحد الأفندية . وقادته المصادفة إلى موظف مثقف سأله فأجاب :

وإذا بقي أهل القرية هناك ، وظلت أنا وأسرنا هنا ، فالدة الأرض الملك إذا لم يرها الصديق فيفرح ، أو المدو فيحزن ؟

وهل يبلغ المرء من الهوان والضعمة أن يفضل العيش في بلدته وهو عبد ، على العيش في غيرها وهو سيد ؟

صحيح أن ميراطا في أرض بلدك ، خير من قدان في بلد غيرك ؛ ولكن كيف السبيل إلى امتلاك هذا القيراط وأرضنا بين (باشا) يستحيل عليه أن يكف عن الشراء ، و (أمير) يستحيل عليه أن يفكر في البيع ؟ على أنني متى أرجع إلى القرية زائراً وراياً في الناس أمشي في الحذاء المفصل ، وأخب في الصوف الفاخر ، وأتافع بالحرير الأصيل ، وأعامل بأوراق النقد دوات المأذنة ، لا يلبثوا أن يقطعوا عزهم عنى الحجرة .

وأشرق الأمل في صدر البهلول وتشوقت نفسه إلى تحقيقه ؛ وتحقيقه لا يبدأ قبل الصباح ، وبينه وبين الصباح هذا الليل البتيل الطويل ، فرأى أن يقصر بالنوم . فاستلقى على الأرض ، حوجه تحت رأسه ، ولقاعته حول عنقه ، وهراوته في يده ، ثم نام ملء عينيه .

وفي مطلع الفجر استيقظ على عادة ، فوجد الشوارع ساكنة والنازل ساكنة والحوائث مغلقة ؛ فقام إلى الترعنة

وزلت في أوسع مكان من قلبي ؟
ولكن لماذا أياأس من الأمر لدى أول
سؤال ؟

لم لا يكون هذا الأفندي من الذين يُلذّم
أن يحبوا عن كل سؤال بأي كلام ،
فيفتوا من غير علم ، ويشيروا من غير خبرة ؟
وبعث فيه هذا الشك روحا من
النشاط شغل خرجه وسار بتقل من
قرية إلى قرية ، ويسأل رجلا بعد رجل ،
وكلهم كانوا يجيبونه إجابة التبخ الذي سألته
في اليوم ، أو إجابة الأفندي الذي سألته في
القديم . فلم يبق لديه شك في أن خبر
المصورة كان أفكك أقاله وقرية مقرر .

وتعاقبت على خاطره الحقائق والأحلام ،
فتارة كان يرى العودة إلى قرينته ليستأنف
حياة الشقاء ، وتارة كان يرى التجوال في
هذه البلاد الكثيرة الأطيان القليلة
السكان ، طلبا للفنى وطمعا في الملك ؛
حتى إذا اغتنى أو امتلك رجع إليهم بالمال
أو أقدمهم عليه للملك .

وكان الخرج قد خلا من الزاد ،
والكبس قد صفر من النقود ، فاضطر
المهدي أن يؤجر نفسه يوما بعد يوم
لأعمال الفلاحة ليعيش

وانفق ذات يوم أن كان عمله عند رجل
من الفلاحين واسع الخبرة بالزراعة ،

وماشأنك بوادي الريان ؟ فقال : علمت
أن به أرضا للحكومة تريد أن تبيعها
الفلاحين بثمن قليل . فقال له الرجل
وملامح وجهه تترجم عن عجبه :

إن وادي الريان يقع في الجنوب الغربي
من الفيوم ، وهو واد منخفض يجذب
لا يثبت به زرع ، ولا يعيش فيه حي ، ولا
يسافر إليه أحد . وكل ما أعلمه من أمره أن
وزارة الأشغال تريد أن تجعله خزانة للنيل ،
تلاؤه منه وهو يفيض ، ثم تفرغه فيه وهو
يفيض ، فيظل ماء النهر طاميا طول السنة .
فبعت المهدي وشخص بمصر وأقام لا
يطرف . ثم انصرف عن الأفندي دون أن
يمقب على جوابه ورجلاه لا تكادان
تحملانه من هول الصدمة ؛ ومشى
متساقطا من الهم حتى بلغ جدارا جلس في
ظله وأخذ يحدث نفسه بصوت يكاد يسمعه
السائر يقول :

يا خيبة المسمى يا ضيعة الأمل ! ماذا
أقول لقوى وقد وعدتهم الوعود ، ومنيتهم
المنى ، وجعلت لهم البر عسلا والبحر
طحينة ؟

أعود ثانية إلى الملك يبيع في ويشترى ،
وإلى الناطق يقات على ويفترى ! أينقطع
الزجاج الأخير في أن أملك قطعة من
الأرض الطيبة التي استأثرت بحبي ،

ولكن أباه كان يرفض أويوسف، لأن نيتته كانت أن يزوجها من فتى كريم مستقيم ينزله منه مائة أدين، فيسا كنه في البيت، ويعاونه في الغبط، ويعاضده في القرية. ولكن عنوان أحد الخطاب كان ظاهرا ملحاحا لم ينس من خطبته تسويق حمدان ولا إعراض فكيفه. كان يقتضى الوسيلة إلى حب البنية بالهدايا في كل مناسبة، وبلغتمس السبل إلى رضا الأب بالمساعدة في كل عمل؛ ولكن فكيفه لم تجد في عنوان الزوج الذي تحبه، وحمدان لم يرق فيه الصهر الذي يرضاه. ومنعت الأيام على هذه الحال حتى دخل المهدي عضوا جديدا في هذه العائلة الصغيرة. وكان من طبيعة المهدي كما علمت أو سمعت الجد في العمل والصدق في النية والإخلاص في العشرة. فدير أمور الزراعة تدبير ابن الأرض الذي يجد لذته في خدمتها، وسعادته بين تربتها. فوقع ذلك من نفس حمدان موقع المسرة والنبطة؛ واستبشر أن يكون المهدي هو الابن الذي ينتظره والصهر الذي يرجوه. وسرى إعجاب المالك بأجيره، إلى زوجته وابنته، فبالفت الزوجة في العناية به، ورعت البيت في التودد إليه. ورخص الوالدان لفكيفة أن تقوم على شؤونته الخاصة، فتفضل ثيابه، وتنظف فراشه، وتبهي طعامه، وترقه عنه بالحديث إذا ما راح متعبا من أعمال اليوم.

طويل التجربة للزراع، فأعجبه من المهدي متانة عضله، وقوة جاده، وضربة فأسه، وقبضة محراثه، فمرض عليه أن يشتغل عنده مشاهرة ثلاثة جننيات غير المظم والملبس والسكن. فقبل التهاول العرض إلى أن يستبين به الأمر، وينكشف أمامه المستقبل

— ٧ —

دخل المهدي دار حمدان كما دخل موسى دار شعيب. كان حمدان رجلا كبير السن، رقيق البدن، حسن الحال، يملك اثني عشر فدانا من أجود الأرض يعتمد في زرعها على الناس؛ لأنه كان أيا لثلاث بنات، تزوجت كبراهن ووسطاهن وبقيت الصغرى تطرد الوحشة عن البيت، وتشبع البهجة في الغبط. ولم يكن حمدان يعمل بيده، وإنما كان يكتري العمال ويقف وراءهم، يرشدهم إلى ما يريد، ويكرههم على ما يحب. أما فكيفه فقد كان عملها أن تذهب إلى أبيها بالنداء أو الماء أو الشاي، وأن ترجع إلى أمها بالخضر أو الفاكهة أو الملف. وكانت في ذهابها أو إيابها محط الأنظار ومطمع القلوب، وفتاة كفكيفة تحوم عليها نفوس الشباب للزوة أبيتها، فكيف إذا كانت مع ذلك وسيمة الوجه، خفيفة الفل، رقيقة البشرة؛ كان الخطاب يتهاقون عليها تهافت الذباب على العسل؛

الحر، واستعان على ترجمة عواطفه الشبوبة
بأنغام الناي. وتمكنت الألفة بينه وبين
شباب القرية فكانوا يخالسونه الوء ،
ويقاسونهم الأوس ، ويتمنون لو يتزوج من
فكيلة لتستقر به النوى عندهم ، ويطيب
له العيش فيهم .

وتوثقت بينه وبين فكيلة عرى
الحب ، فكان لا يسمى إلا معهما ، ولا يتحدث
إلا عنهما ، ولا يفكر إلا فيهما ، حتى أجمع الناس
على أنه الخاطب المختار والحبيب المفضل .
وبارك الشيخ حمدان وزوجه وأهله هذه
الخطبة ، وافتخرت فكيلة على أترابها بهذا
الخاطب ، واعتبشت القرية جمعاً بهذا المواطن ؛
فلم يبق في القوم من ينظر إلى هذا القران
نظرة الحقد إلا علوان .

كان علوان الشقي بطمع في أن تصبح
فكيلة زوجته ، ويتوقع أن تصير فداديتها
ملكه ، ويؤمن بإيمان الغرور بأنه كان
أقرب الخطاب إلى الظاهر بفكيلة قبل
أن يجي هذا المنافس الغريب فيقلب أمله
يأساً ونجسة يؤسا وفوره خيبة . كان يرى
أنه الفتي الأول في القرية ، لأنه كان مرهوب
العداوة لشدة بطشه ، مرغوب الصداقة
لكثرة لموه . ولكن هذا البهلوال المرهوب
المرغوب جاء فغض من قدره ، وطأطأ من
تعاليه : ثم أصبح بمد خطبته لفكيلة العتمة

وكان المهدي لا يزال مشتول البال
بأسه الخائب ويومه القلق وغده المبهم ،
فلم يقطن إلى ما ينعم به في هذه العائلة
الرفيعة من رعاية الأب وعناية الأم وودادة
البيت . ولكنه لم يكد يقطع عزمه على
انتجاع هذا الإقليم سعياً وراء الفتي حتى
تليه فجأة إلى أن يجانبه أجمل فتاة تنشده
الزوج ، وأن تحت يديه أخصب أرض
تطلب الفلاح ، وأن أمام عيبيه أكرم
زوجين يخطوان إلى الموت خطى سريعة
قال في نفسه وهو يردد فنجان الشاي فارغا
إلى فكيلة: أليست هذه هي الفرصة التي طالما
ارتقبها بعين لا تغفل ، وافتكرتها بصبر
لا ينفد ؟ زوجة جميلة تكون اختار زوجتي ،
ودار وسيمة تكون مأوى لأمي وإخوتي ،
وأرض خصيبة تكون عما قريب نواة للملكي
وثروني !

ولم لا يكون الحظ السعيد هو الذي
أتى إلى خير وادى الريان في المنصورة
لأنقل من يؤس محض إلى نعيم خالص ؟
وتفتح قلب المهدي للحب ، واستند شعوره
بالجمال ، فرأى في فكيلة منية نفسه وقرّة عينه
وبهجة فؤاده ؛ ووجد في الغيوم مالم يجده
في إقليم آخر من نرج الطبيعة في مروج
الفيح ، وأوديته الخضراء ، وحدائق العنّ ،
فتحرك فيه عزيمة الفنان فتغنى بالمواعيل

ونكتم المويل، وكشف عن وجهه النطاء .
فلما رآه المهدي ورآنا ، هم باليهوض فردنه
المرضة . وانصرف الآخرون وجلسنا في
مقاعد عم على جانبي سريره . وكان حضورنا قد
قوى من روحه وزاد في تجلده ، خيا عواده ،
وسأل أخاه عن أمه وابنته . ثم سأله العمدة
عما جرى له من يوم قارقنا إلى يوم لقيناه .
فقص علينا ما سمعتموه الليلة على قترات كان
يقطع بينها شدة الوجد أو غيبوبة الحمى
وفي المساء عاود الجريح نزف الرئة
فانقطع أمل الجراح من نجاته . وشاء الله أن
تنجح عملية الموت وأن تحقق عملية الحياة ،
فعدا بحثة الشهيد إلى الأرض التي خلق
منها وعاش فيها ، فاستقبلته القرية كلها
بالتحيب والمويل ، وحزنت عليه حزنا
لم نجد المراء عنه حقبة طويلة

ثم أمسك الحاج عن الكلام بعد أن عبر
بشفته وكفيه عن معنى سبقه إليه القائل :
وارحمتا للغريب بالبلد النازح
ماذا بنفسه منعنا

قارق أحبابه فما انتقموا

بالعيش من بعده ولا انتفما

حمين الزيات

التي تصده عن غايته ، والمهوية التي
تحتجزه عن سعادته . لذلك صمم على أن نزول
من طريقه كل حائل يحول من دون مرامه .
وطوى صدره على أمر

٨

قال الحاج إبراهيم وقد تفرغرت عينه
وتهدج صوته :

واقطعت عنا أخبار المهدي ستة أشهر
فلم نعرف له مكانا ولم تتلق منه رسالة .

وفي عصر يوم من أيام الخريف ،
والخريف فصل الممود والزوابع ، عاد خفير
الأحوال من المركز ومعه إشارة من الأمور
إلى العمدة يقول فيها : « أخطرنا بوليس
القيوم أن رجلا يدعى المهدي البهلول من
بلدكم قد أطلق عليه الرصاص ، وقد ثقل إلى
المستشفى الأميري بين الحياة والموت »

وماهى إلا دقائق معدودات حتى شاع النبأ
في القرية فاستولى عليها حال من الجزع لا
يتصورها إلا من رآها . ولم نضع الوقت في
عتاب القدر ، فسافرنا إلى القيوم ، ودخلنا على
البائس الصربع فوجدناه لا يتقار على الفراش
من مض الألم ومن حوله جماعة من الرجال
والنساء يبكون

فدنا منه العمدة ونحن وقوف نغالب الدمع